

## مدارس الزوراء في عهد الخلفاء

لحضرة مكاتبنا الفاضل الاب انتاس الكرملي البغدادي (تتمة)

١٢ المدرسة النظامية

سُميت النظامية وهي أم مدارس العراق . الطائفة الشهيرة في الآفاق . باسم مؤسسها نظام الملك الوزير الحظير . والعلامة الكبير . وحليف العلماء المتقطع النظر . وهو الذي وُزر لائتين من السلاطين الساجوقية . ادعاب الاعمال الخيرية . لا بل واهل العز والجاه . وهما ألب ارسلان وملكشاه . وكان نظام الملك من اخص واخلص الاصدقاء . للادباء الأعلام . ولاسيما كان صديق الشاعر الفلكي عمر الحيام شيد نظام الملك دعائم المدرسة ونظّم رعاياها . سنة ٥٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م) ومن بعد سنتين من تأسيسها فتحت لطلبة العلم ابوابها . وكان الغرض من انشائها النفسي . تعليم المذهب الشافعي

وقد ذكر ياقوت واحمد بن ابي طاهر البغدادي وأخطيب البغدادي والسماعي والهاد انكاتب وابن الديبشي الراسطي وابن القطيفي والذمهي وابن النجار البغدادي وتقي الدين محمد بن رافع وابوبكر المارستاني وابن الساعاتي البغدادي وابن الثرات وغيرهم اسما . مشاهير مدرسيها ومعلميها شيئا كثيرا . وعدداً وفيراً . ومن نُبها مقرئها النزالي العلامة . والبحر الخبر النهامة . وشهرته مع حن سمع . فتغني عن ذكر ترجمته . ومنهم ايضاً بها . الدين بن شداد وهو ابو الحسن يوسف بن رافع بن عجم بن عتبة بن محمد بن عتاب الاسدي قاضي حلب الفقيه الشافعي الذي نشأ عند اخواله بني شداد فُتسب اليهم . كان وُلد بالوصل الحدباء . ثم انحدر في بغداد الزوراء . واقام فيها سيداً في النظامية نحو ٤ سنين ثم عاد الى مسقط رأسه . وهو الذي كتب سيرة صلاح الدين الايوبي التي تُرجمت الى اللغات الانجليزية

وبجوار هذه المدرسة كانت المدرسة اليهانية التي مر ذكرها . والبيارستان التثني والسوق التثني . ومذان الاخيران من ابناء خمارتكين تاج الدولة تتش احد ابناء السلطان الب ارسلان السلجوقي الذي توفي سنة ٥٥٠٨ هـ (١١١٤ م)

وفي عهد ياقوت الحموي يعني بعد ان مضى على بناء هذه المدرسة مائة سنة كانت مبانيها مائلة في حالة حسنة . واذا انعمنا النظر في ما سطره ياقوت من الفوائد الجزئية البثوث في عدة مواد من تأليفه يظهر جلياً انها كانت واقعة بين باب الأرزج وشاطئ دجلة . اي انها لم تكن بعيدة عن البصية وهي محلة في طرف بغداد الجنوبي ومن الجانب الشرقي متصلة باب كلواذى المعروف اليوم بالباب الشرقي . كما انها كانت واقعة على الطريق الرودية من باب الدرج في السور المحيط بقصور الخلفاء . الى باب البصية هذا وابن جبير الشهير حضر الصلاة في النظامية في الجمعة الاولى من بعد قدمه الى بغداد وذلك سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) وقد وصف المدرسة وصف يسا . جليل يزهر ضياؤها ويفوق بكثير سائر الدائس القديمة التي ترين تلك المدينة الزاهرة وكان عددها ثلاثين في شرقي بغداد فقط

وفي سنة ٥٠٤ هـ (١١١٠ م) يعني بعد بضع سنوات من وفاة نظام الملك أصلحت هذه المدرسة بالتام . ويذكر ابن جبير ان في أيامه كانت الداخلين الواردة من الاملاك والارواق الراجعة الى هذه المدرسة تكفي كل الكفاية لجراية المعلمين والدرسين وحفظ المباني في حالة حسنة بدون ان يخصص مبلغ خارق للمادة لإطعام قراء الطلبة أما سوق النظامية فكان احدى الطرق العامة التي تمر بتلك المحلة وقد وصفه الواصفون بكونه واقفاً مجرار مشرعة سوق المدرسة النظامية . قال ياقوت في مجبه في مادة قرية : « هي محلة كبيرة جداً كالمدينة من الجانب الغربي من بغداد مقابل مشرعة سوق المدرسة النظامية » . وهذا الكلام يشعر بان المدرسة كانت مائة قريباً من ضفة دجلة

ولما زار ابن بطوطة بغداد سنة ٧٢٧ هـ (١٣٢٧ م) كانت النظامية شاخصة احسن الشخوص وقد وصفها بانها واقعة في وسط سوق الثلاثاء في شرقي بغداد في الطرف الاعلى بالنسبة الى الطرف الذي كانت تقوم فيه المدرسة المستنصرية (راجع نقل كلامه بحرفه في ما اشتهاه في المستنصرية ) وهذا الشارع الطويل اي شارع سوق الثلاثاء كان يتعرج ويتسج ويتحوى ويتلوى كأنه الحية ويحيط بأسرار قصور الخلفاء ممتداً من باب كلواذى في الجنوب (باب الشرقي اليوم) الى باب السلطان في الشمال الغربي حيث كان يتسوم سوق الثلاثاء في اصل منشأه ومبداه كما كان موجوداً في عهد ابن سراقون

وبعد زيارة ابن بطوطة باثنتي عشرة سنة كتب حمد الله المؤرخ الفارسي عن  
النظامية وهو لا يشير إليها إلا من طرف خفي ويلقبها « بأب المدارس في بغداد » وهذا  
يدل على ان دوين نصف المائة الرابعة عشرة بعد المسيح كانت المدرسة مائة وان كانت  
الآن قد عفت آثارها واندرست كما يتضح ذلك منذ نصف المائة الثامنة عشرة بما ان  
ينبهر لم يجد في زمانه آثاراً للنظامية ليصفها كما وصف سائر الآثار الباقية في دار الخلفاء .  
اماً اليوم فالتواتر بين البغداديين ان بقايا النظامية هو ما يرى من البيوت المرصوة  
الترابكية في « درب النارة المفطومة » ( اي المقطورة ) وهو الدرب الذي يسميه البعض  
الآخر « بدرب محمود ابو الحسن » ( اي بانع الحسن ) في محلة باب الآغا . وانما سمي  
بدرب النارة المفطومة لان هناك قاعدة متارة اي مثذنة او بعض مثذنة مائة عند عرق  
حائط قد برز منها ما يقرب من ثلثها اي ما يساوي مترين و ٧٨ سنتيمتراً من محيطها  
والباقى منها داخل في الحائط الذي يستند إليها . والشاخص منها سكاكاً اولاً تسمة  
سافات بارزة فوق سطح الارض وعلو كل عرق تسعة سنتيمترات ونصف وفوق هذه  
الداميك الموضوعة على عرض الآجرة ساف آخر على طول الآجرة ( اي ٢١ سنتيمتراً  
تقريباً ) بارز عن موازاة الصفوف الاولى ما يناهز ١٢ سنتيمتراً في الاصل . الا ان  
ضيق الطريق هنا ومظم عرضه ٣ امتار قد اوجب الناس ان يتحركوا بهذا الافريد  
اذا تجتمعا حتى ان البارز منه المتجه نحو ممبر الطريق قد تساوى نتوءه مع بقية الصفوف  
السفلى . واما في الجانب الواحد فقد بقي تقريباً على اصله . وهذا البروز او التور هو  
بمثلة نطاق بين يمتطى الداميك السفلى ويشرف عليها . وفوق هذا العرق النطاقي ٤٥  
سافاً أخرى . يلوها نوع من القبة هي لها كالكثة يُحتم بها البناء . وعدة سافات هذه  
انكسة سبمة . وبالجملة فسك المثذنة او النارة او العلم الموجود اليوم والبيئة فوق  
الارض خمسة امتار وثمانون سنتيمتراً ( انظر الصورة )

والمثذنة مائة عن خط السمت ٢٠ سنتيمتراً وهي واقعة الآن بين دار حنقيل  
حانام يعقوب لمن يأتي من جهة جامع مرجان وبين دار اسحاق بن حنقيل عزرا من  
الجهة الثانية وكلتا الدارين لليهود  
لما عهد هذه النارة فحديث بدون شك وبنائها لا يتجاوز القرنين . والاسباب التي  
تدعونا الى هذا القول كثيرة . منها :

١ نوع الطاباق ( وهو الطابوق بلسان اهل بغداد اي الآجر ) فانه لا يشبه ابداً الآجر الذي كان يستعمله الاقدمون في دولة العباسيين كما في منارة سوق النزل والسن ونحوهما . ولا يشبه ايضاً آجر القرنين الذين تلو العصر العباسي  
٢ وكذلك القول عن الجص الذي يجمع الطاباق بهضه الى بعض

٣ راس المنارة المجموعة وقد قلنا انه يشبه القلنسوة او الكثة مبني من جنس آجر المذنة ومن جصها وحجم آجرها وقطعه ولونه الخ . ولا يمكن ان تتصور انها بُنيت على هذه الصورة منذ عهد الخلفاء . اذ لا شكل هندسي لها ومخالف لجميع اصول البناء .  
والأ فان كان بناء الكثة حديث العهد بالنسبة الى المذنة نفسها القديمة البناء . فكيف لمكن للمحدثين ان يجهشوا بآجر وجص وشيدوه وادلا تتفق بشيء عن مواد المذنة في عهدها الاول . وكيف ضارح البناء الجديد البناء القديم من جهة الاعراض الخارجية ومنظر الكل حديث جديد

٤ ليس في بناء هذه المذنة ما يحملنا على التأن انها من عهد الاقدمين حتى ولا طرز بنائها فانه من ابط ما يكون وليس فيه ادنى عناية . ولا نظام له ولا ترتيب سائر المآذن على ما نشاهده في سائر ابنة الخلفاء . او ما كان منها من بعد عهدهم بقليل . فلا جرم انها حديثة الرضع هناك وقد أقيمت بمنزلة « بناء تذكاري » يذكر اهل المدينة بموضع مركز النظامية سابقاً ولقد بذل البعض مبلغاً طائلاً ليحصلوا على اذن او رخصة من الحكومة او البلدية يستطيعون به ان ينفوا هذا الاثر فلم تجز لهم ذلك . وبإسفاف اذا حصل هؤلاء . مع الزمان على تحقيق امنيتهم فانهم بذلك يزيلون اثر هذه المدرسة وذكرها . واذا تم ذلك لا يورد احد يعرف شيئاً من محلها القديم . بما انه من الآن قد اضحل كل اسم قديم كان معروفاً قبل قرنين او ثلاثة فكيف اذا زال آخر اثر منها فنتوسل الى الحكومة ان تتسك بدم تحقيق ما يتسنى الطالون حفظاً وكراماً لذكر الاقدمين

واما سوق الثلاثاء الذي يكثر ذكره في تاريخ بغداد فهو مجهول اليوم بالكيفية مع انه كان له ذكر مشهور في السابق وكان عظيماً جداً إذ كان يمتد من اول الباب الشمالي عند سوق المدينة فيتل الى سوق قصور الخلفاء . فيمر بسوق الرميحانيين الى ان يتصل بصدر جامع القصر الكبير . اما اليوم فقد أقيمت ابنة كثيرة متضامة على هذا الدرب وسوقه

حتى تنكّرت صورة المدينة الاولى . ولم يبقَ امكان للاهتمام الى اصل رسم ذلك السور  
ولا الى دربه ولا ولا ولا . والباقي منه يعرف بمدة اسماء بحسب موقعها او جوارها لبعض  
المعاهد والابنية او بموجب صاحبها وشاريها وما لكها من ذلك « محلة ثلاثة دكاكين .  
ودرب المنارة المقطومة . وباب الآغا . الى غير ذلك  
أما نظام الملك مؤسسها فقد قال عنه ابن خلكان ما ملخصه :

« وكان نظام الملك من نواحي طوس وكان من اولاد الدهاقين واشتغل بالحديث والفقه ثم  
اتصل بخدمته علي بن شاذان المشد عليه بديته بلغ وكان يكتب له فكان يصادفه في كل سنة  
فهرب منه وقصد دارد بن ميخائيل السليجوقي والد السلطان ألب ارسلان فظهر له منه التصح  
والهبة فأسأه الى ولده الب ارسلان وقال له : اتخذهُ والدًا ولا تخالفهُ فها يشير به . فلما ملك  
الب ارسلان دبّر امرهُ فأحسن التديير وبقي في خدمته عشرين فلما مات الب ارسلان وازدهم  
اولاده على الملك وطّد المملكة لولده ملك شاه قصار الامر كله لنظام الملك وليس للسلطان إلا  
التخت والصيد . واقام على هذا عشرين سنة . . . وكان مجلّه عامراً بالفقه والصوفية . . . وبني  
المدارس والرُبط والمساجد في البلاد وهو اول من انشأ المدارس فاقصدى به الناس وشرع في عمارة  
مدرسته [ النظامية ] ببغداد سنة ٤٥٧ هـ ( ١٠٦٤ م ) وفي سنة ٤٥٩ هـ جمع الناس على طباقم ليدرس  
بها الشيخ ابو اسحاق الشيرازي فلم يضر فذكر الدوس ابو نصر بن الصباغ صاحب الشامل عشرين  
يوماً ثم جلس الشيخ ابو اسحاق بعد ذلك . . . وله من الشعر قوله :

بعد الثمانين لبس قره قد ذهبت شرّة الصبوة  
كاتبتي والمصا بكنتي موسى ولكن بلا نبوة هـ

وقد ذكرنا في صدر هذه المقالة سنة ولادته ووفاته  
ومن يحق ذكره هنا الشيخ ابو سعيد من شيوخ الصوفية وقد ذكره الجامي في  
كتاب فتحات الاتس فانه تولى دراسة المدرسة النظامية بعد أن عُني بيناتها ( اطلب  
نجاني الادب ١ : ٨٧ ) . يتهرهُ الصوفيون كل الاعتبار ويشنون عليه لورعه وآدابه .  
توفي نحو اواخر المائة الحامسة من الهجرة

### مدارس النصارى

واما النصارى فكانوا مختارين في ارسال اولادهم الى مدارس العرب او الى  
ارسالهم الى مكاتبهم . واول من حظّر عليهم تعليمهم في مدارس المسلمين الخليفة  
المتركل قال في اخبار فطاركة الشرق من كتاب الجدل لماري بن سليمان ( ص ٢٦ )

ما هذانضة... وأسر [ المتوكل ] بان لا تعلم اولادهم ( اي اولاد النصارى ) في  
مكاتب العرب اه

وكان لهم عدة مدارس منها:

### ١ مدرسة في الكرخ

وهي التي نشأ فيها ابو محفوظ معروف بن الفيززان المشهور بالمعروف الكرخي نسبة  
الى كرخ بغداد. كان اهل نصارى وأسلم. (راجع كتاب خلاصة الذهب السبوك.  
مختصر من سير الملوك تأليف عبد الرحمان سنبط قنتيو الاربلي (ص ١٤٥ من طبعة  
بيروت)

### ٢ مدرسة أخرى في الكرخ

قال ماري بن سليمان (ص ٢٦) « ولأبني النصور مدينته (في الكرخ) وتزلها  
الناس هدم سبر يشوع (جائليق الناطرة) تلك الابنية (أبنية مار قثيون) لاجل من  
تغلب عليها ولم يترخص الهيكل والمذبح . وجدد بناء بيت الاشهاد والاروقة ونصب  
اسكولاً (مدرسة) وجمع التلمسين وكان علي وعيسى ابنا دارد يقومان بامرهم واقام  
الجائليق فيه ورسم ان يدفع من دخله الى رهبان عمر صر وهو المعروف بسر  
حلبيا وهم الناقلة من هذا الدير اربعة دنانير في كل شهر اه كلامه

### ٣ اسكول سرامي

هو مدرسة خرج منها اعظم مشاهير علماء النصارى ولم يكن في نفس بغداد بل  
كان قريباً منها. واكابر البغاددة كانوا يرسلون اليه اولادهم. قال ابن ابي اصيعة في  
مثنى بن يوتان (١: ٢٣٥) « كان ابو بشر مثنى بن يوتان من اهل دير قنني مثنى نشأ في  
اسكول سرامي اه - وقال ياقوت : « دير قنني بضم أوله وتشديد ثانيه مقصور (١)  
يرعرف بدير سرامي السليح (٢). قال الشاذلي: وهو على ١٦ فرسخاً من بغداد  
منحدرًا بين النمامية وهو في الجانب الشرقي ممدود في اعمال النهروان اه

(١) والنصارى من العرب بضبطونه بضم القاف وكسر التون وفي الآخر ياء ساكنة ومنهم من  
يقسم وأما بين القاف والتون ويقول قوني. ويزعمون انسا امرأة بنت هذا الدير وكبته من  
مالها الحاص واوقفت لليلة قسسي باسمها

(٢) وفي الاصل: السليخ بياء معجمة وهو غلط

وهناك عدة مدارس ومدارس واسكولات لا يمكن الحصول على اسمائها فقد كتب ماري بن سليمان (ص ١١٢) عن الجائليق يرانيس انه «تجوّز بأخذ الرشي على الاياميزات جهراً واخراب البيع وتطيل الاسكولات (التي في بغداد) اه . وهذا كلام يستشف من ورائه انه كان في بغداد عدة مدارس او اسكولات كما انه كان فيها عدة بيع

وقال المذكور في (ص ٨٥) عن الجائليق يوحنا بن عيسى انه «تربّي في قطعة النصارى ببغداد . وقطعة النصارى هذه كانت قريبة من درب القراطيس وكان فيها ايضاً نصارى اذ قال بُعيد ذلك : «وتعصب على يوحنا قوم من قطعة النصارى ودرب القراطيس كانوا يعرفون منشأه وتربّي بينهم» اه . ولما كان لا بُد لكل حجة من كنيسة ومدرسة كان من الواضح وجود مثل ذلك في تلك الحجة هذا الذي تمكّنت يدنا الى الوصول اليه من اسماء المدارس مع تأكيدنا اننا لم نذكر الا شيئاً زهيداً منها ولهذا فان كان بين القراء من يستطيع ان يدينا الى غير ما ذكرناه فانه يستحق الأجر وبناهة الذكر والله المكافئ المُنيب . وكفى به محناً

## نعيم الآخرة

مقالة ليلياً مطران نصيبين

عني بنشرها الاب لويس معلوف اليسوعي

### توطئة

في الشهر الأوّل من الشهر الحالي تحتفل الكنيسة بيد صعود الرب الى السماء . وهي تفتخر الفرصة لتوجه افكار ابتلائها الى افراح الجنة فتتولد رجاءهم في الثواب الذي ينتظرون في دارالبقاء اذا ما جامدوا مع الرسول الجهاد الطيب فتلبوا الشهوات وقلوا الصالحات . وقد رأينا نحن ايضاً هذا الوقت موافقاً لنشر مقالة في نعيم الآخرة وذلك اثر قدم وقتنا عليه في احد مخطوطات اوكسفورد العريضة وهو لكاتب نسطوري شهير ايلياً مطران نصيبين نشرنا له سابقاً (في المشرق ٦: ١١١) رسالة في وحدانية الخالق وتثليث اثناسيوس كماً اتتلفتها من المجموع ولا حاجة لوصف هذا المخطوط